

على تخوم العالمين

(١)

الصحراء^(١)

بيتي على حدود الأبد - لو أنه كان للأبد حدود - وليس هو بيتي وإن كنت ساكنه، وما أعرف لي شبر أرض في كل هذه الكرة، ولقد كانت لي قصور - ولكن في الآخرة!! - بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع، ووقفت معلقاً بين الحياتين، كما سكنت على تخوم العالمين!

ولغيري الأحراز والأملك، ولكن من الصعب أن يتصور المرء أن (أرضاً) ملكه - ملكه كيف؟ يستطيع أن يزرعها إذا شاء، أو يبني فوقها إذا أحب، ولكن هذا ليس إلا نوعاً من الارتفاق، فأما أن يفهم العقل على وجه مقبول جلي أن هذه القطعة من الأرض - هذه القشرة المنتشرة على كتلة العالم، هذه الطبقة المتصلة بطبقات دونها - ملكه! فما لا أصدقه ولا أدركه!! وتصور أن جبلاً من الجبال ملكك؟! جبلاً أشم شاخاً تتجاوب في مخارمه الأصداء، وتصارع كتلته الرازحة الرياح والأنواء - ملكك؟ لأصدق من ذلك وأقرب إلى الصواب فيه أن تقول: إنك أنت ملكه!

وإلى يميني الصحراء، وإلى يساري.. الصحراء، وفي كل ناحية يرقى في فجاجها الطرف.. الصحراء، وفي الصدر.. لا أدري سوى أنه قواء!!

وفي كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأترث على حفافيتها برهة أشهد عباها المتدفق

(١) عند هذه الصحراء تفرق مساكن الأحياء عن مقابر الموتى، وليس في الصحراء مقابر.

ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ويقذف بأشلاء غرقاه ثم يرتد ليثوب بسواهم، مطوين في أكفان أثباجه، محمولين على نعوش من مريد أمواجه. وبعد أن أقضي حق العين من التأمل والشهود، كأني موكل بعد الموتى وحساب البيود، أكر راجعاً إلى صحراواقي!

والقمر يضيئها كما يضيئكم أبناء الحياة! ويبسط على رمالها الصفراء نوره الفضي اللين اللألاء، ويضربها ساري الطل ضربة الروضة الفيحاء، وتوامض بلوراتها الأنجم الزهراء، وتطلع عليها الشمس وتغيب كل صباح ومساء، فما تميز (العناية) بين ممرعة وجدباء، وكل شيء عند الطبيعة ككل شيء سواء بسواء، ولو خلت منكم الدنيا لما أحسست فقدكم لا الأرض ولا السماء!

ويزحف الليل فأبرز إلى الصحراء، فيلفني الظلام في شملته، وتلطمني الريح وتدفعني وترد من خطاي كأنها تريد لتصدني عن هولها، وأعود كبعض ذراتها لا تراها العين، ولا يحسها ولا يحفل بها كون، فليت من تخدعهم الحياة وتنسيهم ضالة أقدارهم يخرجون ليلة إلى الصحراء!

وماذا يعرف عن الليل من يسكن المدن ويعيش بين أضوائها الناسخة للظلمة، المضیعة لوقعها في النفس؟ هاهنا الليل الطاغي العاتي يا من ألفتهم نعومة الحياة وطراوة العيش! فوقك السماء لا تراها ولكن تحس أنها دنت منك، وأسفت إليك، فلو رفعت يدك لدفعتها، وتحك الرمل وتغوص فيه قدمك وتريد أن تقتلعها منه ويأبى أن يدعها لك كأنها شوقه طول الجذب إلى غرس ولو كان إنساناً!! ومن الريح في أذنك الرعد مرسلًا دافعًا - هل رأيت (الدوامة) في الماء؟ إليها تنحدر كل موجة، وصوبها يجري كل طاف، وفيها يغرق كل محمول على متن التيار - كذلك تكون أذناك للريح! فيها ينصب صفيها، وإليها يجري مُزَمِّمها، كأنها أضتا قطبًا شماليًا

يجذب الرياح من الجهات الأربع! فيالفرحة الريح بطارق الصحراء!!

ويتجرد الإنسان فيها من اسمه، ولا يعود فلاناً ابن فلان -كائناً من كان هذان
الفلانان- بل بعضها وأهون ما فيها، وتسقط عن نفسه -كأوراق الشجر الذاوية-
عواطف الغضب والألم والمراح والأمل واليأس والندم والأسف والطماح، وتسكن
الشهوات الجارحة وتختفي النزعات المقلقة الطائشة ولا يبقى سوى طمأنينة وادعة،
كصفحة الغدير المصقولة إذ يمسحها النسيم الواني، حتى والريح تعصف والظلمة
مسخنكة.

ويحدث نفسه إذا شاء -بل هو لا يسعه إلا أن يحدثها- ولا ينكر صوته ولا يستغرب
أو يلحظ أنه تغير وأنه صار أشبه شيء بالصدى واثباً عن جوانب الغار.

ويغنيها في الليلة القمراء...

وقد تراحف الناس بيناهم فما عمروا منها فيما أرى خراباً، ولا تحيفوا منها طرفاً أو
ضيقوا لها رحاباً، هي أبدٌ صغير، وهل ينتقص من الأبد كر الأيام والشهور؟

والمرء ينتفض فوقها غبار الحياة، وينضو عندها كل ثوب مستعار، وينسى أنه سعى
وفاز أو خاب، وأن عليه أن يعود كرتة إلى خوض قديم العباب.

ويا عجباً لها! أهبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود وبى حاجة أن أميط عن نفسي
ما علق بها من الأوحال، فأغشى الصحراء فأصفو من الأخلاط والأوشاب،
وأرجع ولم يعلق حتى بثوبي التراب..

(٢)

صفحة سوداء من مذكراتي!

أنا الساعة في خلوة بنفسي - لا سمير إلا طيف الماضي - هذا أنيسي، يعمر لي فجاج الصحراء، ويكظها بالأشباح الجوفاء، ويحيطني بحاشية من الذكريات ليس لها انتهاء، ويُطرفني بأحاديث أيامي التي تقضت، وأحلامي التي انتسخت، وهما في التي فترت، وبساتين آمالي التي ضوّحت...

رقدتُ على الرمال وجعلت عيني قيد هذه السماء المجلوة التي لا تعرف فنّ الإمطار، وكان القمر طالعاً ولكنه باهت كابي الضوء، كالذكرى، يغري بالوجوم ولا يُشيع في النفس حرارة، وهفا فوق عصفير حط على صخرة... هناك!.. هناك حيث لم أكن أجلس وحدي!.. وانطلق يغرد.

آه لو علمت عصفيري أن صوتك كان يكون أصفى، وتغريدك أحلى وأشجى... ولكن عينها لن تفتح على هذه السماء، وسمعها لن يرده هذا الغناء؟!

والمرء في خلوته يكون أقرب إلى الجنون إذا ذهبت تعتبر سلوكه، كما يقول ماكسيم جوركي، لأنه يرسل نفسه على سجيتها حين يأمن عيون الرقباء، ويقول أو يفعل ما بدا له غير محتشم. وقد أذكرتني كلمة جوركي أني أحياناً أجدي أنحني ساخرًا من شخص لا وجود له إلا في وهمي، أو أحك أنفي بأصبعي مكايذاً من أتخيل أني أعابته، أو أخرج لساني لصورتي في المرأة!

وكان العصفور أعداني فرحت أغني.. وما أنا بالمحتمل الصوت ولا هذا من عاداتي،

وإن في طبعي لاحتشامًا، كثيرًا ما ينغص عليّ متعي ولذا ذاتي. غير أنني لم ألتفت إلى صوتي ولا أحسبني حتى سمعته، وإنما هو ذهول عراني فمضيت أرسل من الأصوات ما كان يطربني حين يصافح أذني كأنها أردت لأستدني به نائيًا.. فخیل إليّ أنني سامع وقع قدمين تدلفان نحوي... ولكن الطيف مرّ بي ولم يترث، واشتمل عليه ظلام الليل كما طوى صاحبه ظلام الأبد!

واأسفي عليك! - لا بل عليّ - لم يبق منك إلا طيفٌ يعتاد ذاكرتي! لا أثر على الرمال الخائنة التي كنا نمشي فوقها ونرقد عليها، ونملأ أكفنا منها، وندعُ ذراتها تتساقط خيوطًا من بين فروج أصابعنا! ولقد نسيك النجوم التي كنت تحبينها وتشيرين إليها بينانك وتعدينها ولم تستوحش خلو مكانك إلى جانبي تحت عيونها المتلاحمة - بل هي لم تذكر حتى يقال نسيك - والقمر الذي كنت تأنين بطلعته وتخالسينه النظر من بين خصل شعرك الدجوجي المرخي على وجهك تحت ضوءه الفضي اللين، لا يزال يتسم كالعهد به ابتسامة السخر والسهم كأنه لم يفتقدك!

كلا! ما من شيء فيما أرى يحس افتقارك كأنك لم تحمي وجه هذه الطبيعة الخاملة الحس، الميتة المشاعر، التي تروعننا وهي لا تحفلنا، وتسبيننا ولا تذكرنا، حتى أنا الباكي عليك تعروني رعدة كلما تصورت ما يصنع البلى بك! شفتاك الحساستان اللتان كانتا تستديران لتلقيا قبلاقي، ماذا صارتا الآن؟ صديداً سائلاً! وعيناك؟ أليستا الساعة كهفين بشعين أعالج أن أطرد من مخيلتي صورتها؟ وأنفك الأشم المنسجم لعله في هذه اللحظة مرتع ديدان ومرعى حشرات! وأناملك الغضة التي كانت تضغط كفي عن أرق عاطفة وأحناها؟ إيه ما أشنعها صورة وأهولها!! وماذا أنا الآن؟ حي من الأحياء لا يدري الناس أنني مت منذ سنين وإني قبر متحرك كشمشون ملتون، أو جثة لم تجد من يدفنها أو صورة باهتة لما كتته في حياتي، وما أعد

فيمن لا يزالون على قيد الحياة إلا لأني ينقصني أن تُكتب لي شهادة بالوفاة! ولقد كنتُ كما يتوهمني الناس الآن، حيًّا تتدفق الدماء الحارة في عروقي، فلما تأملت مصائر الخلق ركدت الدماء قليلاً وابتردت ومات مني شيء! ثم قضى ولداتا فأحسست ديبب الفناء، وضحى ظلك فتساقطت أزهار الحياة بين يدي وذوت نوارات آمالي تحت عيني، وإذا كفي ملأى بميت الزهر مما قطفت قدمًا، فشاع في الموت علوًا وسفلًا!!

وإني لأقضي أيامي على نحو ما، أروح وأجيء وأكتب وأتكلم وأضحك وأكل وأشرب، ولكني لا أرجو ولا أغضب، ولا أحزن ولا أطرب، ولا أرهب ولا أرغب لأني لست أحيًا الآن!!

وإني لغارق في لجج هذه الخواطر وإذا بفتاة رويدٍ تعدو إليّ وتناديني باسمي، فأفقت ورُددت إلى الدنيا ولكن كما يفيق المغشي عليه: يتلفت في كل ناحية ويسأل أين هو؟ ويعجب لنفسه ولن حوله، وبذهنه بعض الكلال، وعلى عينيه كالغشاوة، ثم اعتدلت فوق الرمل ونبهت حواسي ومداركي بجهد وقلت: «من عسى تكونين يا فتاتي؟».

قالت: «لقد ذهبت أملأ جرتي من بيتكم هذا (وأشارت إليه وكان بحيث يُرى) كعادي كل ليلة بعد أن تنقطع الرجل^(١)، ألم ترني قبل الليلة؟». قلت: نعم (ولكني لم أذكرها).

فمضت في كلامها وهي تلهث وتلقي عليَّ الأسئلة ولا تنتظر جوابها «إني كل ليلة

(١) شركة الماء تحظر هذا.

أتسلل إلى البيت وجرتي تحت ملاءتي وأدفع الباب برفق. لماذا لا توصل بابك؟ ألا تخشى سارقاً؟ ولكن لو كنت توصله لتعذر عليّ أحياناً الدخول ولكنني أخجل أن أزعجكم كل ليلة من أجل جرة ماء! ويعد أن أدخل وأضع جرتي في الحوض أتركها تمتلئ على مهل وأرود لحديقة، ولكنني والله لم أقطف منها شيئاً، وإن كنت أحب ثمر الحناء؟ قد انتهرتني ليلة وأنا أتمشى تحسبني أريد أن أسرق، فخفت وبكيت في الطريق وقلت: كيف يسيء الظن بي؟ نعم كيف أسأت الظن بي؟« فقلت: «لم أكن أعرفك يا فتاتي فلا تغضبي وخدي ما شئت من الحديقة فما بها يستحق أن يضمن به المرء» فانحنت إليّ وأنا قاعد على الرمل ووضعت راحتيها على ركبتيها وأكبت بوجهها على وجهي وحدقت في عيني وقالت بلهجة العاتب المحاسب: «كيف لم تكن تعرفني؟ ألسنُ أحبيك كلما دخلت ورأيتك جالساً في ذلك الركن المظلم تحت الكرمة؟» فتناولت وجهها بين كفي وجذبه إليّ في رفق وقبلتها إذ لم يكن ثمة بد من ذلك، وقلت: «لا تغضبي يا فتاتي، وإذا كنت تريد ثمر الحناء فاجنيه كله، أو العنب فعناقيدته لك، ولكن خبريني من ذلك على مكاني؟» ونهضتُ. فعادت إلى التحدر وقالت: «من دلي؟ يا له من سؤال! كأن الدنيا كلها لا تعرف! ولقد وجدت بابك الليلة موصلداً فعلمت أنك خرجت إلى هنا فجئت أبحث عنك لتفتحه لي فأني أستحيي أن أقرعه».

قلت: «أحسن، فتعالى إلى هذه الصخرة» قالت: «لماذا؟» قلت: «لتعدي لي النجوم!» قالت: «أو هذا ممكن؟ إنها كثيرة جداً جداً!»، قلت: «نعم، ولكنك كلما عددت نجماً وأشرت إليه بأصبعك اختفى واستسر حتى لا يبقى في السماء ولا الأرض إلا عيناك!».

قلت: «أصحيح هذا؟» وجعلت تثب وتصفق حتى لخلتها إحدى بنات الليل،

ومضينا إلى الصخرة، وجلست وأجلستها على ركبتي وطوقتها بذراعي وانطلقت
هي تعد النجوم وأنا ألتهم فاهها كلما عدت واحداً، وهي فرحة بلثماقي، تردها مضاعفة
حارة وتمز رأسها وتنفض شعرها ثم تلقي بنفسها على ذراعي كرة أخرى وتستأنف
العد، ووجهها إلى السماء، وشعرها المرسل متدلٍ إلى الأرض. ولبثنا كذلك لا أدري
كم! ولكن الذي أدريه أن سنا حسنها طرد خفافيش خواطري التي كانت تمرح في
ظلام رأسي!

(٣)
الغريرة

مررت عشاءً -بي- فتانة	يا حسننها لو أن حسنًا يدوم
والليل ساجٍ شاحب بدره	كأنها أضناه طول الوجوم
فقلت: يا غادة أذكرتني	أحلام عيشٍ نسختها الهموم
أمثل هذا الحسن لـأيسزل	في عالم الشر القديم العميم
ألم يسزل (كوييد) ذا صولة	يرمي فيدمي كل قلب سليم
قالت: ومن كوييد هذا الذي	تذكره مقترنسا بالكلموم؟
فقلت: هذا ولسد مولع	بصيد أكباد السورى كالغريم!
فتمتعت عائذة باسمه	من كل شيطان خبيث رجيم
يا بدر هل أبصرتها موهناً	بين ذراعي تعد النجوم؟
أم كنت في ليلة ذاك النعيم	في شغل عنا بكحل الغيوم؟
يا بدر ما أفشاك رغم الوجوم!	

في جوارها

ولثمته...!

لم أكلمه، ولكن نظرتي

ساءلته: أين أمك؟

أين أمك؟

وهو يهذي لي، على عادته

مذ تولت، كل يوم

كل يوم

فانثنى يبسط من وجهي الغضون

ولعمري كيف ذاك؟

كيف ذاك؟

قلت لما مسحت وجهي يداه:

«أترى تملك حيلة؟»

أي حيلة؟»

قال: «ما تعني بهذا يا أبتاه؟»

قلت: «لا شيء أردته»

ولثمته..!

هاتف من جانب القبر

جمالك^(٣) لا تأسف عليّ ولا تأسى
 طواني الردى عن ناظريك فجأة
 أراني الصبا شمسي بعيدًا مغيها
 وكنت سرور العين والأنف والحشا
 ولا تتجشم لي الحفاظ فلأنني
 وأدخل إليك الشمس من كل كوة
 ستسليك عني كل زهراء ناهد
 فما أنت بالباكي عليّ وإنما
 فلاني تحت الأرض لا أحفل الجبا
 وما كان ظني قط أن أسكن الرمسا
 فسرعان ما ولّى النهار وما أمسى؟
 فأصبحت أؤدي العين والأنف والنفسا
 وقد مت لا أوليك شكراً ولا حسا
 فما يتملى العيش من يحجب الشمسا
 وإن بقيت ذكراي همس بي همسا
 على فُقد ما قد كنت طبت به نفسا

(٣) جمالك: أي صبرك.

رفيق

يلازمني في جيتسي وذهوبي رفيق من الماضي أليف شحوب
أقول له: «قدمت يا صاح فاحتجب» يفتر عما «كان» ثغر حبيب
وما بجميل منه تنغيص حاضري بأن عليه منه عين رقيب
وقد كان قدما «حاضرًا» لا يمضه شريك ولا يشكو حساب حبيب

ما الفرق

توقلتُ طودًا لم تكن^(٤) تتوقل وأصعدت فيه جامدًا أنتقل
خلاء قواء جنَّه عبقرية تعاوي به طورًا وطورًا تجلجل
من اللاء كم صالت وجالت بمثله عمالقـة الدنيا الذين تحملوا^(٥)
ولم تكن تهواه فكنت أروده وحيـدًا ولا أشكو لا أنملل
فكيف غدا من بعدها جد موحش ولم تك تغشاه معي حين أفعل؟

(٤) لم تكن (هي).

(٥) تحملوا: أي ارتحلوا. وفي الأساطير: أن العمالقـة كانوا يتقاذفون بالجيال.

في الفسقاط

أيا بلدة الفسقاط ما أنت بلدة
طواك قضاء الله في الأرض حقبة
خطوط وأنقاض كما جاهد الفتى
خرائب من حولي وفي النفس مثلها
وكم خلت نفسي بعض أدراس نؤمها
قضيت بها ليلاً طويلاً قصيره
فوا أسفاً لو هاهنا كنت لأنثني
لأوحشتني لما خلت منك رقتي
آسفة للموت؟ أم أنت يا ترى
ولكننا ذكرى لمؤتلف الخفض
وأنشرك الإنسان نقضاً إلى نقض
ليحيي ذكرى وهي تمنع في الغمض
وأهول منها ويل بعضي من بعضي
فأقررت حتى كان يفزعني نبضي
وهل تقصر الليالات من شدة المخض؟
قصيراً على الليل ذي الطول والعرض
ولم تؤنسي ذا وحشة في حشا الأرض!
أراحك مني الله ذو البسط والقبض؟

الأسى

بكيتك بالدمع السخين ولم أزل	بقلبي وإن جفت مآقي باكيًا
ولست أرى الدنيا التي كنت روحها	وريحانها تأسى عليك ولا ليًا
وليس الأسى أن تذرف العين عبرة	يبرد مهرها القلوب الصواليًا
ولكنه عطف ولهف وحسرة	وتقلبك الأحلام حمراء داميًا

صورتها

تأملت لها حتى تحرك ساكن	من الثغر والعينين والرأس والصدر
أصبح هذا الحسن قبحًا وجيفة؟	بلى! ويسد الأنف من نتنه المزري!
ويمسي صديداً كل ما كان من قوى	وماء شباب مستحير ومن سحر
فيا بسؤس للبوغاء يعفر وجهها	ويكحل جفניה ويلصق بالنحرا
وللدود يقتات الليالي بحسنها	ويتركها كوماً من الأعظم النخرا

شؤم الخيال

أرى رونق الحسناء في معية الصبا فيوضع بي شؤم الخيال ويُعنى^(١)
ويشهدنيها في التراب مرمّةً وقد عالها غول الحمام الموفق

^(١) الإيضاع والإعناق ضربان من السرعة. والمعنى: أني كلما رأيت حسناء في ريعان شبابها تخيلتها ميتة مدرجة في قبرها وقد صارت جيفة.

النجاح

قال أحد كتاب الروس -ولست أذكر اسمه لأرويه-: كان بمدينة كذا رجل ضعيف العقل، وكان الناس لا يمسون عن الخوض في أمره والتحدث بتخلف ذهنه وغلظ عقله، فكربه ذلك وساءه وأحب أن يغير رأي الناس فيه، فلم يزل يعمل فكره حتى هداه طول التفكير والتدبر إلى ما هو خليق أن يبلغه أمنيته ويحقق له غايته ورغبته، وذلك أنه صار كلما لقي واحداً من معارفه وإخوانه يستخف رأيه ويستجهله، فإذا ذكر أمامه كتاباً ورأى أنه يستجيده قال له: هذا كتاب سخيف ليس فيه معنى ولا وراءه محصول، وإنك إذ تستحسنه وتستجيده لتدل برأيك فيه على تخلفك عن عصرك وتأخرك عنه.

وإذا امتدح أحد صورة على مسمع منه انبرى له بالتقص والاعتراض قائلاً: ليس في هذه الصورة شيء يستجاد، وإنك بمدحك إياها وإكبارك لها لتثبت أنك متأخر عن عصرك، وهكذا ظل صاحبنا يستهجن كل ما يستحسنه الناس ويتهمهم بضعف العقل ويرميهم بالقصور والتخلف عن الزمن وبجهل ما عفي عليه من الآراء وأجد من الحقائق، فيمضون عنه وهم خجلون من سقطاتهم وعثراتهم حتى أكبروا عقله وإن أفزعتهم وقاحتهم وراعتهم جرأته.

وبلغ من نجاح صاحبنا فيما قصد إليه أن صاحب جريدة استكتبه وسأله أن يوافيه بآرائه في الأدب والفنون والاجتماع! فلم يجد عن خطته التي رسمها لنفسه وهي تنقص كل عمل ورمي مستجيديه بالتخلف وعدم الاطلاع على أحدث الآراء التي أنتجها العصر! فصار قوة لا يملك إهمالها الكتّاب والمؤلفون والمصورون وسائر

الفنيين. وقد أراد واضح القصة أن يدل القارئ بها على سر من أسرار النجاح، ولم نرد نحن بإيرادها أن نذهب إلى أن الدعوى والتبجح لازمان في الحياة وأنها وسيلة النجاح ولا وسيلة سواهما، ولكننا أردنا أن نقول: إن الحياء شيء حسن له فضله ومزيته، ولكنه، على ذلك، ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه ويظفر بما هو أهل له. فقد تكون أقوى الناس استعدادًا وأكثرهم مواهب وملكات وأقدرهم على الاضطلاع بالأعباء والقيام بخطيرات الأمور وجلائل المساعي، ويحرمك الحياء أن تجني ثمرة تعبك وزهرة غرسك. وليس في الخجل معنى أن الحياة أو نتيجة إلا أن الناس يملئون بطونهم وأنت جائع، ويدخلون وأنت واقف بالباب، ويتقدمونك وأنت متردد!

واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التي تستحقها، لم يرفعك الناس إليها، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضًا ويزحزونك إلى ما هو وراءها لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد، والجهد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالًا للعمل. فلا تصدق من يشيرون عليك بالترقى والوداعة وينصحون لك بالاستحياء، فإنه لا حياء في الحق ولا خجل من السعي لإحراز ما تستحقه من الأنصباء، وأحسب هؤلاء النصحاء أرادوا أن يستأثروا بالسبق فأشاروا عليك بالتقاعد! ويستبدوا بالفوز فزينوا لك الزهد والقناعة! ألسنت ترى أن الدول كيف تعلن عن فضائلها ومحاسن صفاتها ومميزاتها وهي قد أوتيت كل الرذائل والمقابح والخصائص؟ وكيف تدعي سمو العقل ونبل المقاصد وشرف المنازع وهي فائرة الصدور بالحق والضعيفة؟ وكيف تتظاهر بالزهد والعفة عما في يد الغير وهو شاغل شعاب مطاعمها ومالي جو آمالها؟ وكيف تزعم أنها تفيض عطفًا على أمم العالم وحبًا للبشر وإيثارًا لخير، وهي قد أكل قلبها الكره والاحتقار؟ وكيف تقاوم كل حركة رقي وهي تباهي بأنها مولد الآراء الجديدة؟ وكيف تفاخر بها تسنمته من تلاع

الرقى وأنجاد الرفعة وهي تجر رجليها وراء أصغر الشعوب؟ وكيف تتشدد بمبادئ الحق والعدل وهي تظلم الضعفاء وتسرقهم وتسلبهم حريتهم وتنتهك كل حرمة وتفجر في كل عهد وتنقض كل وعد؟ والناس يسمعون هذه الدعاوي الخلابية وتسحرهم فتتها ويصدقونها ولا يتبهنون -ولو نبهتهم- إلى أن اليد لا تكثر لما يجري به اللسان!! وإذا كان هذا مبلغ التبجح بالباطل فماذا عسى ينبغي أن يكون مقدار الجرأة في الحق؟

لو كان في هذه الدنيا موازين لا تغل شعيرة تزن أقدار الناس والأمم وتقسم الحقوق بالعدل والقسطاس لما عادت بنا حاجة إلى النصيح بالمغامرة وإطراح الحياء والخجل ونفض غبار التفاعد والحمول، ولكن ما تستحقه رهنٌ بتقديرك وحدك دون سواك. فمن أفحش الحمق أن تدع أمرك موكولاً لإنصاف خصمك -نقول خصمك لأن كل الناس وكل الأمم خصوم على الحقيقة- وما من أحد إلا وفوزك بشيء أو سبقك إليه، يجرمه إياه فهو مضطر إلى مغالطتك فيه وصرفك عنه ومغاليتك بالقوة عليه إذا لم تُجد معك الحيلة، وعلى قدر سعي المرء وما يبذله من الجهود يكون استحقاقه؛ لأن الحياة هي الحركة والجهاد لا النوم والتواكل، وما أحق من يقعد ويفتح فمه أن يملأه الزمان تراباً!!